

لحن الثورة

قصة بقلم يحيى خلف

« الى ادباء المقاومة في المنطقة المحتلة »

- انقد نفسي نقدا ذاتيا .. لقد كانت لي اخطائي الفردية في عمليات سابقة اشركت بها .
وصمت لحظات ، ثم تابع :
- في عملية (جيشر) فقدت قطعة سلاح ، وفي عملية طريق اللد فجرت اللغم قبل موعده بثوان .. يجب ان لا يتكرر هذا ثانية .
قال الملازم فجأة : قللوا من التدخين ، وخفضوا اصواتكم بقدر المستطاع .
اطفا خالد السيارة ، وبدأ الرجال يتأمنون ، فيما استلقى الملازم دون ان ياكل لقمة واحدة .
وحينما اغمضت جفوني ، كان خالد يقف امام المفارة في نوبة حراسة .

افقت على يد تهزني .. كانت يد خالد .. ناولني (المطرة) وقال :
- اغسل وجهك واشرب فامامنا لحظة الصفر .
وخلال لحظات التأهب ، كان خالد يجمع شفثيه ، ويصفر بغمه لعنا خافتا . بعد ذلك بدأ الملازم يناقش العملية مرة ثانية ، واعاد الشرح لمجموعتي الاقتحام والحراسة . وعندما خيم الظلام نظر الملازم الى ساعتها ، واخبرنا انه لا يزال امامنا مسيرة ثلاث ساعات اخرى .
واذ ذاك خرجنا من المفارة ، وعادونا السير ...
كانت الدنيا من السواد بحيث اذ مدت اصبعك امام وجهك فانك لا تراه ، ولكننا مع ذلك ، كنا نسير بانتظام ، كل واحد يبعد عن الآخر بضع خطوات .. وكل واحد يمسك الكلاشينكوف في يده ، ويعلق حقيبة الادوات على كتفه وكنا نصعد الجبل .. ونصعد .. ظلست الخطوات تتحرك بحذر ، اي انزلاق كان معناه السقوط الى السفح والموت ، وفيما كانت هذه الخطوات تتردد في ذهني ، سمعت حركة ما خلفي ، تبعها تدرج بعض الصخور .. توقفنا جميعا فسي وقت واحد ..

قال الملازم : ماذا حدث ؟

جاءنا صوت خالد وهو يعاود الوقوف :

- تعثرت بحجر وسقطت في حفرة .

سأله الملازم باهتمام : هل انت بخير ؟

كان الظلام يتكاثف ، ومن خلال اللاشيء اجاب خالد :

- كل شيء على ما يرام .

ومرة اخرى عادونا السير ، ومرت فترة من الصمت قبسل ان

التفت خلفي واسأله :

- خالد .. هل انت بخير حقا ؟

اجابني بصوت خافت اقرب ما يكون الى الهمس :

- تمزق بنطالي وجرحت كفي .

جاء صوت الملازم بصلابة : الكلام محظور .

صمتنا ، ولم ادر لم تصورت « خالد » يجمع شفثيه ويصفر

لعنا خافتا رغم الالم . اخيرا ، وصلنا قمة الجبل ، وبدأنا الهبوط ..

حين بدأت النجوم في السماء تتأرجح بين الظهور والافول، قلت للملازم :

- يجب ان نجد مكانا . لقد طلع النهار ، والرجال بحاجة للراحة .

لم يقل الملازم شيئا ، لكن « خالد » قال من ورائي :

- تشجع وكن صبورا .

ظلت الخطوات المنهكة تنتقل بجلد فوق الحجارة الصوانية المدببة . وبين حين واخر كان الملازم ينقل (الكلاشينكوف) من يد الى اخرى ، ويعدل من وضع الحقيبة المعلقة على كتفه ..

ادرت رأسي الى الخلف . كان « خالد » يسير بثبات ووراهه بقية عناصر المجموعة ... لم يكن يبعد عني سوى خمسة امتار، لذلك فقد اصدمت نظراتي بعينييه الصلبتين ، وما لبث ان ابتسم ، وأشار لي بان انظر امامي لكي لا اصطدم باحدى الصخور .

ظهرت عن بعد مفارة تحيط بها بعض النباتات الشوكية ، فقال للملازم :

- سنقضي النهار في هذه المفارة .

عبر العناصر باب المفارة ، ظل « خالد » واقفا بجانب الملازم ، وكان اخر من عبر الى الداخل ..

استلقي غير بعيد عني ، واخرج صندوق سجائره ، واشعل واحد ، في حين انهمكت بقية العناصر بالاكل .

فتحت الحقيبة ، واخرجت طعامي .. عرضت عليه قطعة من علبه البلايبف ، اشار الى السيارة بيده ، وشكرني .

اخر مرة تناولنا فيها الطعام معا كان قبل اربع عشرة ساعة في القاعدة ، قبل الانطلاق بساعات جئت اليه احمل وجبتنا ..

كان منهمكا في الكتابة وهو يصفر بغمه لعنا شجيا كعادته ..

ان اللحن على شفثيه لا يمكن انتزاعه حتى في اكثر اللحظات خطرا ، وقد اوحى ذلك الى احد العناصر بالقول : « ان خالد يبحث عن النغمة الصحيحة لتأليف لحن الثورة » .

قلت له : خالد .. ماذا تكتب ؟

كف عن التصغير ، ولم يجب .

عدت اقول له : هل تكتب وصيتك ؟

نفي ذلك بهزة من راسه . واتبعها قائلا :

- ان وصيتي شفوية .

ظل يكتب ، وانا انتظره ، لنتناول الطعام معا ، واذ مرت فترة طويلة وهو ما زال يكتب ، فقد صحت به :

- ماذا تكتب ... رسالة الى خطيبتك ؟

ابتسم واجاب :

- لا وقت لذلك الان ..

هتفت به : ماذا ... اذن ..

اجابني بصوت خافت : احاسب نفسي .

- لا افهم .

توقف عن الكتابة ، وبدأ يخط باصابعه خطوطا على الارض ، وقال :

مذكرات مالكولم X

زعيم الزنوج المسلمين في اميركا

في نيسان ١٩٦٥ ، اغتيل مالكولم X زعيم
الزنوج المسلمين في اميركا . وقد كان وسيبقى واحدا
من اشجع زعماء الحركة الزنوجية في اميركا واكثرهم
اصالة وابعدهم شهرة . وقبل ان يقتل بعدة اشهر
(وكان يتوقع ذلك) املى على الصحفي «الكس هالاي»
سيرته الذاتية التي هي اعجب سيرة لزعيم !
ذلك ان مالكولم X لا يخفي في سيرته شيئا
من اسرار حياته ، بل يتحدث بكل صدق عن شبابه
في الكوخ الذي كان يعيش فيه في حي «هارلم» حيث
كان يتعاطى المخدرات والخمر ويمارس السرقة
والسلب ويعيش عيشة الانطلال . وفي السجن الذي
قادته اليه اعماله اللصوية ، اكتشف فجأة السقوط
الذي يعيش فيه ويعيش فيه كذلك كل افراد شعبه
الزنوج . وهناك اعتنق الاسلام وانضم الى « امة
الاسلام » ليكرس حياته كلها فيما بعد لتأومة «الشیطان
الايض» المسؤول عن سقوط الزنوج في اميركا .
ويتحدث مالكولم X في مذكراته الرائعة عن
حياة السود ومشاكلهم والتمييز العنصري السليبي
يمارسه عليهم البيض من الاميركيين ، وعن تمردهم
وثورتهم التي نشاهد اليوم بعض مظاهرها في عدد
من مدن اميركا الكبرى ، ويحلل في نفاذ وعمق الظروف
السياسية والنفسية التي يعيش فيها الزنوج
الاميركيون ، وعن ايمانه بالاسلام كدين يحارب التمييز
ويدعو الى الاخوة الحقيقية بين الشعوب والامم .
وقد وصف روبرت كندي هذا الزعيم بانسه
الوحيد بين زعماء الزنوج الاميركيين الذي يمتلك
(مضطيسية) عجيبة !

مذكرات رائعة مؤثرة عن حياة مضطربة عجيبة
لرجل عمقري يعتبر شاهدا على فترة خطيرة من تاريخ
الزنوج الاميركيين الذين يكافحون من اجل تحريرهم
ويقفون بصلابة في وجه سياسة اميركا المخادمة .
صدر حديثا - الثمن ٥٥٠ ق.ل

وفجأة ... من بعيد ... ظهرت اصواء المسكر الاسرائيلي .
اقترب الملازم ، وقال : استمعوا .
وسريما انقسمت المجموعة الى فريقين .. فرقة الاقتحام ، وفرقة
الحراسة .

انزلت الحقيبة ، واخرجت اللغم ، وبدأت افخه ، كان علي
ان ازرع اللغم على الطريق الوحيدة المؤدية الى المسكر ، وكان خالد
مكلفا بحمايتي .
قال لي خالد قبل ان ابدأ : الله معك .

ابتسمت له ، وبدأت الزحف .
زرعت اللغم ، وعند عودتي ، بدأت وحدة الصواريخ التابعة
لفرقة الاقتحام تقصف المسكر ، ثم تابعت الطلقات السريعة كزخات
الطر ..

انت طلقات عنيفة تجاهي من كمين خلفي .. كانت المنطقة التي
اقبع فيها مكشوفة ، وانتظرت من خالد ان يسكت هذا الكمين المفاجيء
دون جدوى ، فاخذت ازحف بمنف وغضب . تكاثف الرصاص من
حولي ، فصحت في اعماقي : « لاذا لا تخرسهم يا خالد ... لاذا » .
قررت اخيرا ان اهجم على الكمين بقنبلة يدوية ، وبعد الانفجار
صمت كل شيء .

عندما وصلت الى خالد ، وجدته يدقن رأسه بين يديه :
صرخت به :

- لاذا تركتني اموت ؟

اصوات قنبلة جديدة ، فرجع لي كفه وقال لي بصوت وحشي
جارح :

- اصابعي متصلبة .. ومتورمة .. لم استطع ان اطلق الرصاص
.. لم استطع .

تذكرت انه سقط قبل ساعة في حفرة ، وان كفه قد جرح ،
فلم اعلق بكلمة واحدة .

كانت مجموعة الاقتحام ما تزال تؤدي مهمتها ، وكان خالد الى
جانبي متصلب الوجه .. فجأة ، لكم الأرض في قسوة ، وقال بصوت
متشنج :

- لاذا تصلبت اصابعي في لحظة الصفر .. لاذا ؟ .. لاذا ؟
من بعيد جاءت سيارتان نصف مجنزرتين .

انفجر اللغم بالاولى فتطايرت في الفضاء المضيء فسي حين
تراجعت الأخرى ، واخذت تستدير لتعود من حيث انت ..

كشف خالد عن الحزام المتفجر على صدره ، ثم ناولني
الكلاشينكوف ، وقال بعجلة :

- هذا سلاحي .. اعده معك للقاعدة .

ثم قلن من الكمين ، وركض باتجاه السيارة النسجبة ..
شاهدته بعيني بهجم ويلقي بنفسه عليها فتفجر وتمزق ،
ويتمزق معها .

وحينما اخذ الرفاق من مجموعة الاقتحام يعودون بعد انتهاء
المهمة كنت لا ازال مذهولا .

عند نقطة التجمع قدمت للملازم تقريرا شفويا عما حدث ، فقطب
جبينه وقال :

- ما كان عليه ان يفعل هذا ، ولكنه رفض ان يسجل على نفسه
الزيد من النقد الذاتي .

وخلال العودة ، كنا نسير في صمت .. وعلى كفتي كان يتعلق
الكلاشينكوف الذي كان مع خالد ، وعندما اقتربنا من القاعدة هبت

موجة من التسييم لامست فوهة الكلاشينكوف فصدر عن ذلك صفير ..
احسست عندها ، بان « خالد » لا يزال معنا ، وتصورته يجمع شفتيه،
ويصفر بقمه لحنا للثورة .

يحيى يخلف